

الفصل الثاني

الدروس والعبر المستفادة من غزوة بني قريظة

المبحث الأول

الدروس العقائدية

١ - السمة الجدية لهذا الدين:

يقول د/ أبو فارس: «تجده هذه السمة تبرز واضحة في غزوات الرسول ﷺ، إذ كان لا يكتفي ﷺ بمواجهة الفكر بالفكر والحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، لكنه لا يقف عند هذا إذا تكرر عدوه فطغى وبغى، وأقفل العقل، واعتمد على قوته وجبروته يريد كبت أنفاس الحق ودعائه، نعم إنه ﷺ في هذه الحالة يواجه القوة بقوة أعظم منها، ويواجه التحدي بتحد أشد، بل إنه يتجاوز هذا إلى أنه يقابل عدوه الذي يفكر باستخدام القوة ضده أن يفاجئه ويبدأ باستخدام القوة معه. إن رسول الله ﷺ حين رأى اليهود يلعبون بالنار في المدينة ويهددون أمن الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة اتخذ موقفًا حاسمًا حازمًا منهم، وهذه هي السمة الجدية لهذا الدين.

إن هذا الدين يوجب على أتباعه أن يحموا مبادئهم وحقوقهم بالقوة، فإن القوة أضمن طريق لإحقاق الحق، وما أجمل أن تسير القوة والحق جنبًا إلى جنب، إن الحق بغير قوة ضائع، والقوة بلا حق ظلم، والإسلام يأبى الأمرين ويرفضهما، إن كثيرًا من قضايا المسلمين اليوم ضائعة، وهي حق لا ظلم فيها، ولا شبهة ظلم، ولكن هذه الحقوق ضائعة لأن أهلها غير قادرين على حمايتها، وغير قادرين على الوقوف بجانبها بقوة وحزم مهما كلف الثمن.

إن هذا الدين يُعلم أتباعه الجدية في مواجهة التحديات، ويُجرّم على أتباعه الخنوع والخضوع والذل والهوان والاستسلام المخزي الذليل.

إن هذا الدين يوجب على أتباعه أن يصارعوا من يصارعونهم ويصرعهم، ويفرض على أهله أن يقاتلوا من يقاتلونهم ويقتلهم، ويرموا من يريدون رميه وتدميره.

حين يتحلى المسلمون بهذه الصفة، ويمتازون بهذه السمة، ترهبهم أعداؤهم، وتحترمهم أمم الأرض، تطلب ودهم، وتسعى لتنال رضاهم.

أما اليوم فهم في غاية من الهوان لا يسرون صديقًا ولا ينكحون عدوًّا، صداقتهم وعداوتهم سواء، هذه هي حال ومآل الذي يتخلى عن دين الله ﷻ وعن سيرة رسول الله ﷺ، فلا يستفيد منها، ولا يقتني أثرها». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٤٧-٤٨].

٢ - الإيمان بوجود الملائكة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد شاركت الملائكة في غزوة بني قريظة، كما شاركت في غزوة الخندق، بل إن الذين شاركوا في غزوة الخندق هم أنفسهم الذين شاركوا في غزوة بني قريظة، بهذا صرحت الأحاديث المتقدمة، إذ أخبر جبريل عليه السلام أن الملائكة التي شاركت في غزوة الخندق لم تضع السلاح، وهي على أهبة الاستعداد لإكمال الواجب عليها، وهو المسير إلى بني قريظة، ولقد سار جبريل عليه السلام ولمسيره غبار شاهده أكثر من واحد من الصحابة، وجاءت بذلك الأخبار الصحيحة.

لقد كانت مهمة الملائكة في الغزوتين إلقاء الرعب والخوف والهلل والجزع في قلوب جيوش الأحزاب، واليهود، فلا يقوون على قتال المسلمين والوقوف في وجوههم، وقد حصل هذا في غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، إذ انهارت معنويات الأحزاب فساروا يجرؤون أذبال الهزيمة، ورجعوا مدحورين مهوورين لم ينالوا خيراً، كما انهارت معنويات بني قريظة واستسلموا صاغرين».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٤٨-٤٩].

٣ - طاعة الرسول ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «فيه مثال لحرص الصحابة رضي الله عنهم على طاعة أمر رسول الله ﷺ، فحينما قال: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، امتثلوا أمره إلى حد أن بعضهم حينما تأخر مضطراً آخر صلاة العصر حتى وصل إلى بني قريظة تنفيذاً لظاهر أمر النبي ﷺ». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦٠].

٤ - البراءة من الكفار:

يقول د/ الحميدي: «موقف في البراءة من الكفار لأسيد بن حضير رضي الله عنه وذلك حينما هدد بني قريظة، وقوله حينما ذكروه بولائهم لقومه الأوس: لَا عَهْدَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَلَا إِلَّ، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه؛ لأن التخلص من أحلاف الجاهلية ليس بالأمر اليسير إلا على من يسره الله عليه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦٠-١٦١].

٥ - هيبة النبي ﷺ في نفوس أعدائه:

يقول د/ أبو فارس: «لقد نال يهود بني قريظة من رسول الله ﷺ ومن أزواجه، في غيابه، فلما حضر، وخاطبهم فأنبههم لم يجرؤ أحد على أن يتلفظ أمامه كلمة؛ رهبة منه، وهيبة، لكن هذه الهيبة صاحبها قوة وحزم وجد وصرامة، فخافوا وجبنوا عن الرد.

ومن الحق أن يُقال: إن رسول الله ﷺ كان يهابه من يراه، ويُجِله من يسمع قوله إذا كان ذالِباً.

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٤-٥٥].

٦- تأكد اليهود من نبوة محمد ﷺ:

ويقول د/ البوطي: «لقد رأيت من مجرى كلام كعب بن أسد مع إخوانه اليهود، أنهم كانوا على يقين من نبوة محمد ﷺ وعلى اطلاع تام على ما أثبتته التوراة من الحديث عنه ﷺ وعن علاماته وبعثته، ولكنهم كانوا عبيداً لعصبيتهم وتكبرهم، وذلك هو سبب الكفر عند كثير ممن يتظاهر بعدم الإيمان والفهم، وذلك هو الدليل البين على أن الإسلام في عقيدته وعامة أحكامه إنما هو دين الفطرة البشرية الصافية، ينسجم في عقيدته مع العقل وينسجم في تشريعاته وأحكامه مع حاجات الإنسان ومصلحته، فلن تجد من عاقل سمع باسم الإسلام وألم بحقيقته وجوهره ثم كفر به كفراً عقلياً صادقاً، إنما هو أحد شيئين: إما أنه لم يسمع بالإسلام على حقيقته، وإنا قيل له عنه كلام زائف باطل، وإما أنه وقف على حقيقته واطلع على جوهره، فهو يأباه إباءً نفسياً لحقد على المسلمين أو غرض هوى يخشى فواته». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٩].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد قامت الحجة على صدق رسالة الرسول ﷺ، فهو نبي بشرت التوراة به، وأقر بهذا زعيم بني قريظة، وكان هذا أمام يهود بني قريظة، فلم ينكر عليه ما قال، بل السكوت في معرض الحاجة إلى بيانٍ».

تأمل قول كعب لقومه: **فَوَاللَّهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَنَبِيٍّ مَّرْسَلٌ، وَأَنَّهُ لَلَّذِي نَحْنُوهُ فِي كِتَابِكُمْ.** إن مما يقضي منه العجب أن تقوم الأدلة عند بني قريظة على صدق هذا الرسول ﷺ، ويدعوهم زعيمهم إلى الإسلام فلم يسلموا، فما الباعث على إصرارهم على الكفر؟ إنه العناد والاستكبار والعلو، واتباع الهوى، وحين يسيطر على الإنسان هواه، ويعجب بنفسه، ويستعلي على الناس يعمى عن إِبْصَارِ الحقيقة، ويحرم السعادة بها». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٦٠/٢].

ويقول د/ فيض الله: «كان اليهود يعرفون جيداً أن محمداً رسول الله ﷺ - كما قدمنا - وكما أخبر القرآن عنهم أكثر من مرة بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠]. ومن مقتضيات هذه المعرفة، ومن حقوقها أن يؤمنوا به، ويوقروه ويعزروه، ولا يمسوه بأي أذى. لكن يهود بني قريظة، كانوا كغيرهم من اليهود، كافرين بمحمد ورسالته، يُظهرون له المودة والاحترام، ويُضمرون له في أنفسهم حقداً دفيناً، ومكرًا سيئاً مأكراً.

غير أن المناسبات الخاصة كانت تخرجهم، فتُظهر ما يُبْشِّرُون من المكر، ويدفنون من الحقد؛ وليست الخدعة التي ضرب بها الأشجعي بينهم وبين المشركين بالشيء الهين اليسير، فقد فُرقت الجمع، وقطعت دابر الكفر بألوانه، فخرج القوم عن طورهم، ونالوا بألْسِنَتِهِمْ من رسول الله ﷺ، وسمع مقاتلهم عليٌّ ؑ بأذنه، فهرع إلى الرسول ﷺ ورجاه ألا يقابل هؤلاء الأخابث.

فَعَلِمَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، وَقَالَ: «لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا».

لكنه سعى إليهم موبخاً، قائلاً: «يَا إِخْوَانَ الْفِرْدَةِ! هَلْ أَخْرَأَكُمُ اللَّهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟».

ولا يخفى ما يحمل هذا التعنيف في شحنته من معانٍ؛ ولا تخفى على أحد صفات القردة، فانظر كيف قابل الجبناء هذا التعنيف بقولهم: يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا! وإذا لم يكن محمد ﷺ فاحشًا، فهل من مقتضيات ذلك أن يَتَطَاوَلَ عليه، أو أن يُمَسَّ بسوء؟ وهل من لوازم الإسلام ورسول الإسلام، أن يُتَأَمَّرَ عليه، ويُتَأَلَّبَ ضده، والعهد قائم بينه وبينهم، وتحشد جموع الكفار كلها، وتضرب الحصار عليه، للقضاء عليه، فلا ينطق بكلمة سوء، وليست الكلمة إلا تلك التي وسمهم بها رب العالمين بقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَاوْا عَنْ مَا هُوَ أَعْتَمَدُ فَلَنَّا لَهُمْ كُونًا قَرَدَةً خَنِيسِينَ﴾ [الأعراف].

إنهم يعرفون أخلاق محمد ﷺ، ويعرفون الحق الذي يدعو إليه، لكنهم يُنكرون كل حق لهذه المعرفة، ولا يعترفون لها بحرية ولا تقدير سلطان.

إنهم يريدون أن ينالوا من محمد ﷺ كل نيل باللسان والسنان؛ ليشفوا ما في قلوبهم من غل وعلل، إزاء الإسلام ورسوله، ولا يرضون بعد ذلك أن يدافع محمد ﷺ عن نفسه، بكلمة ما؛ لأن خلقه عظيم، وليس بفحاش ولا سباب.

لهذا لم يأبه محمد ﷺ بأمانيتهم وترهاتهم هذه، فواجههم بفتنتهم، وتصدى لهم - بعد أن ولى المشركون بخزيهم - ليصفي حسابهم معهم، ويكيل لهم بالصاع الذي كالوه له مع المشركين. ولقنهم درسًا في عواقب الغدر، لا تنساه الأجيال، ولا تبليه الليالي، جزاءً وفاقًا.

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٥٧-٢٥٩].

٧- بين العقيدة والعمل:

ويقول الشيخ أبو خوات: «نأخذ من محادثة كعب بن أسد لقومه أن اليهود كانوا يعلمون أن محمدًا ﷺ رسول الله، وكثير منهم أسلموا عن رضا وطوعية، ولكن هناك فرق بين العلم والانقياد، فكثيرون يعلمون عن رجل أو شيء أو دين أنه خير، ولكن الحقد والعناد يحولان بين العلم وثمرته، فإن ثمرة العلم الانقياد لما يقتضيه.

وقضية العقيدة وأثرها في السلوك ما تزال شغل المربين الشاغل. كيف يصلون إلى أن يعمل ذو العقيدة ما يقتضيه الإيمان بها، بحيث يكون سلوكه تطبيقًا عمليًا لعقيدته؟ فالمسلم الذي يعلم أن الكذب محرم ثم يكذب مثلاً، والاشتراكي الذي يتغنى بالمبادئ الاشتراكية ثم يسلك سلوك البخلاء الأشحاء مع من يعيش معه في مجتمعه^(١)، كل هؤلاء مرضى

(١) سقطت النظرية الاشتراكية سقوطاً ذريعاً، ولكن الكاتب كتب هذا الكلام تحت ضغط التأثير الإعلامي للاشتراكية في مصر في فترة الستينيات من القرن العشرين، وقد تراجعت الدكتور مصطفى السباعي عن كتابه (اشتراكية الإسلام)، كما تولى كثير من علمائنا نقض النظرية الاشتراكية، من أمثال سيد قطب، والمودودي، والسباعي، والغزالي، وينظر على سبيل المثال: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، والإسلام والمناهج الاشتراكية للشيخ محمد الغزالي، وكذلك كتاب: موقف الإسلام من الاشتراكية للدكتور مناع القطان، وغيرها الكثير. غريب.

الانفصال بين العقيدة والسلوك.

كما نأخذ أنهم يعرفون تمامًا أن طائفة منهم اعتدت بالصيد يوم السبت فمسخوا قردة خاسئين، ولكن يهود اليوم يتعالون على المسخ الذي حدث، ويحاولون الانتقام من البشرية تشفيًا وإثلاج صدر.

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٩٤-٩٥].

٨ - اليهود لا يؤمنون بالتوراة إلا شكلاً، ولا يؤمنون إلا بأنفسهم:

يقول د/ فيض الله: «دلت قصة سيد اليهود كعب بن أسد، وعرضه عليهم ثلاث خصال: الإيمان بمحمد، فإنه تبين لهم - على حد تعبيره - أنه رسول الله؛ أو الخروج إليه بعد تقتيل النساء والأولاد، ليجرؤوا على قتاله؛ أو مباغتته يوم السبت.

على أن اليهود كانوا يتعللون بالإيمان بالتوراة، وما كانوا بها مؤمنين، كانوا يؤمنون منها بما يحلو لهم؛ كانوا يؤمنون بأنفسهم، وبما يحقق مصالحهم، وآمالهم، فإذا جد الجد، وأُمرُوا بأن يقتلوا أنفسهم، تكفيرًا لذنوبهم، أو أن يقتلوا ذراريهم، ليخلصوا للجهاد، تناقلوا وانقبضوا: ﴿وَمَتَّهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، ومن قبل قالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَإَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَتَدُونَ﴾ [المائدة: ٢٦].

إنهم كالطفل المدلل بالمادة، والمعلل باللهو واللعب، لا شخصية له ولا وجهة، ولا رأي ولا مبدأ، كان أحسن وصف لهم ما قاله سيدهم كعب بن أسد، في هذه المحاورة، وبعد أن طرح عليهم هذه العروض: «مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا»، لقد قال لهم سيدهم: «لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مُرْسَلٌ» وأخذ عليهم في التوراة أن يؤمنوا به، وبيّن لهم فيها صفاته، وأمارات النبوة: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٧].

كفروا به؛ لأنهم كانوا يحرصون على أن يكونوا هم السادة، لا أن يكونوا تابعين لمحمد ﷺ؛ وما كانت أنفسهم لتطيب بهذه التبعية؛ ولو أنهم نسوا أنفسهم، وذكروا التوراة، وآمنوا، لانتهدت كل المشكلات والمتاعب.

وفي سبيل أنفسهم، خالفوا أحكام التوراة، بل وعتوا واجترأوا، وحرفوا كلمتها، وغيروا ما شأوا أن يغيروا؛ لتنسجم مع مصالحهم المادية، فنقضوا الموائيق، وصدوا عن سبيل الله، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وأكلوا الربا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وتَقَوَّلُوا على مريم، وزعموا أنهم قتلوا المسيح ابنها عليه السلام وعدوا في السبت، وهُمُوا بقتل محمد بن عبد الله ﷺ، كما بيّنا في غزوة النصير، بل هم - الآن - بنو قريظة بأن يفتكوا به وبالمسلمين جميعًا، ويسبوا ذراريهم، ويسترقوا نساءهم، ويبيعوا أطفالهم في أسواق الرقيق؛ فهل بذلك أمرتهم التوراة، وهي التي نزلت نورًا وهدى لهم؟ وهل هذا كله من محاسن إيمانهم بها؟

إن هذا ليدل على أنهم ما فهموها، ولا آمنوا بها، ولا طبقوا أحكامها، فكانوا كما قال القرآن الكريم فيهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَتْلُو مِثْلَ الْقُورِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا بَيَّنَّتْ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاطِينَ﴾ [الجمعة].

لقد آمن بالتوراة فريق منهم، كما نزلت، وآمن بها أو جبت، وسارع إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ كورقة، وابن سلام، ومخيرق، وآخرين، فلم يزداهم ذلك إلا عتواً ونفوراً، وحقداً على الإسلام، وإيغالا في ماديتهم، وإغراقاً في حب أنفسهم. [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٥٩-٢٦٠].

٩ - فقه نفسية العدو:

تعليقاً على العروض التي عرضها كعب بن أسد على قومه يقول د/ الغضبان: «ها نحن نجد كعب بن أسد يدرك أبعاد المعركة ونتائجها، ويعلم أن الموقف خاسر، وأن نزوله على حكم محمد ﷺ يعني الإبادة التامة، والمقاومة يائسة خاسرة، ويبحث عن طريق النجاة فلا يراها إلا في الإسلام، والإسلام هو الذي يحقن دمه ودم بني قريظة جميعاً، فمحمد ﷺ يقول: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَسْهَلُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». [البخاري في الإيمان (٢٥)، وفي الصلاة (٣٩٣)، وفي الزكاة (١٤٠٠)، وفي الجهاد والسير (٢٩٤٦)، وفي استئابة المرتدين والمعاندين وقتالهم (٦٩٢٤)، وفي الاعتصام بالكتاب (٧٢٨٥)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، (٢٢، ٢١)، وفي فضائل الصحابة (٢٤٠٥)، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)، وفي الجهاد (٢٦٤٠، ٢٦٤١)، وفي الجنائز (٣١٩٤)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٢٦٠٨)، وفي تفسير القرآن (٣٣٤١)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، وفي الجهاد (٣٠٩٠-٣٠٩٥)، وفي تحريم الدم (٣٩٦٧-٣٩٦٩، ٣٩٧٧، ٣٩٧٩، ٣٩٨٢، ٣٩٨٣)، وفي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٣)، (٥٠٣٩)، وابن ماجه في المقدمة (٧١، ٧٢)، وفي الفتن (٣٩٢٧-٣٩٢٩)، والدارمي في السير (٢٤٤٦)، ومسنند أحمد عن أبي بكر الصديق وعمر وأبي هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وأوس بن أبي أوس الثقفني ومعاذ بن جبل (٢٠٠)].

وتفكير كعب بالإسلام ولو من باب المصلحة يدل على أنه أقل حقداً من حيي بن أخطب وتفانيه في الزعامة والرئاسة، وطمس الحقد على بصره وبصيرته، ولئن شُبه حيي بأبي جهل في حقه وكفره، فكعب أشبه ما يكون بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة زعيم بني أمية، إذ كانوا يدركون المصلحة كثيراً ويعجزون عن تنفيذها خضوعاً لقومهم، ولئن استطاع عبد الله بن سلام حبر اليهود ﷺ أن يتجاوز عصبية، ويستجيب لأمر ربه، فكعب عاجز عن ذلك؛ لأن الزعامة عنده كذلك هدف لا يقوت، إنه يعرف أن محمداً ﷺ حق، وأن إصراره على التمسك باليهودية عناد وحق، لكن رآها فرصة سانحة أن يقود قومه للإسلام، ولو كان من باب حقن دمائهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، غير أن الأتباع كثيراً من الأحيان ما يكونون أسوأ عصبية من القيادات وخاصة اليهود الذين وصفهم رب السماوات والأرض بقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ يُكْفَرُهُمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

لقد دخلت عبادة العجل في دمائهم وبطونهم فشربوها شرًّا، وامتزجت بكل شرايينهم، فكان جواب اليهود القاطع: لَا نَفَارِقُ حُكْمَ التَّوْرَةِ أَبَدًا، وَلَا نَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ.

وكعب يعرف أن قضية اليهودية عندهم عصبية أكثر منها عقيدة، ومن أجل ذلك حينما عرض عليهم الدخول في الإسلام ورفضوا أراد أن يضعهم عند التزامات هذه العقيدة، فعرض عليهم التضحية الخالصة، عرض عليهم قتل أبنائهم ونسائهم لتكون الحرب طاحنة، فلا يأسوا على مال أو زوج أو ولد، فالقتل لا يخيفهم لاطمئنانهم أن ذرايعهم لن تكون أسرى بيد المسلمين، ولن تفتضح أعراضهم، غير أن القوم حياتهم أغلى عليهم من أعراضهم وأولادهم، فما لذة العيش بعدهم؟

وهكذا لم يتخل بنو قريظة عن دينهم، ولم يضحوا بنسائهم وأولادهم وأرواحهم من أجل هذا الدين، فلم يعد إلا الحل الثالث: الهجوم المباغت على المسلمين ليلة السبت، فاعتذروا أنهم لا يفسدون سبتهم، وهكذا رفض الأتباع كل اقتراحات القيادة، ويثس كعب من قومه، فليس أمامهم إلا الموت جوعًا وعطشًا أو النزول على حكم محمد ﷺ، أما أن يُقاتلون بشرف، أو يُقاتلوا ببسالة أو يقاوموا ببطولة، فهذا في منطق اليهود لا يقوم.

وما أحوجنا إلى أن نتعرف على هذه الطباع، والمعرفة بيننا وبينهم قائمة، والحرب مستمرة.

إن فقه نفسية العدو تعطينا كثيرًا من الإضاءات على طبيعة مواجهته.

والغريب أننا نواجه اليوم ظاهراً بنماذج جديدة حتى أصبح العربي يخشى اليهودي، وأصبح العرب وهم يناهزون المائة مليون ونصف (!!!؟) عاجزين عن المواجهة، عاجزين عن الحرب، هُزموا نفسياً بعد حربين خاضوها، وكانت الحربان خاسرتين، لقد أصبحوا جميعاً يتحدثون عن السلام، وأصبحت قياداتهم تؤمن بالحل السلمي - أو الاستسلامي - أكثر من إيمانها بالله، وبعد حرب الـ ٧٣ مع اليهود، انتهت فكرة الحرب والمواجهة عند العرب، وراحوا يجلمون باسترداد الأراضي بالطرق السلمية، وتجمع مؤتمراتهم على ذلك، ويقدمون مشروع الحل السلمي هم، ولا يناقشون إطلاقاً بالوجود اليهودي، بل يطلبون استعادة الضفة الغربية لتكون وطنًا للفلسطينيين، وكفى الله العرب القتال. ^(١)

إن قرئنا قد شهد هذه المأساة، مأساة الاستسلام المتخاذل، مأساة اليقين عند حكام العرب وكثير من شعوبهم أن إسرائيل لن تُقهر، وأن العرب لن يتصروا، إنهم يمثلون تمامًا عرب الأوس والخزرج قبل الإسلام، حين كان الكيان اليهودي في المدينة يهدد الكيان العربي ويقول له: أظل زمان نبي نبتعه، فنقتلكم به قتل عاد وإرم، وكان العرب يقبلون من اليهود أحكامهم فيمتاوتون على التحالف معهم ويتسابقون.

(١) كان هذا قديمًا، فقد نال العرب آمالهم المرتقبة!! وتمت اتفاقية غزة أريحا وقام وطن للفلسطينيين وليته ما قام؟ وما

زالت مؤتمرات الاتفاقيات تتجدد كل يوم!

وهؤلاء هم عرب اليوم، لقد كان الرعب يحتاج الإنسان العربي في الماضي من اليهود لأنهم أهل علم، وأهل سلاح، بل كان سلاح العرب في المدينة من صنّع اليهود، فكيف يحاربونهم، وعرب اليوم الذين غدوا بلا عقيدة وبلا دين قد أكلهم الرعب من اليهود لعلمهم وسلاحهم، وعلم اليهود علم بشري وسلاحهم اليوم صنّع غربي أو محلي، لم تنقلب الآية بعد، ولم تتغير الطبائع، ولم تتبدل النفوس.

لقد كان اليهود يهددون الكيان العربي بالنبي الذي سيُبعث، وقد أطل زمانه، وكان العرب ينتظرون أن يأتي هذا النبي حتى يُبادوا، فهم يعرفون أن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم التوراة، لكن عندما تبنى العرب هذا النبي ﷺ، وساروا وراءه عرفوا أنهم لا بد قاتلو اليهود قتل عاد وإرم: «إن هذا هو النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه»، وسبقوا اليهود إلى هذا النبي، آمنوا به، وعرف اليهود في قرارة نفوسهم أنهم منهزمون ما لم يتبعوا هذا النبي، ومع ذلك رفضوا، كما رأينا رفضهم مع كعب أن يدخلوا في الإسلام حقداً وضغينة وعصبيّة، لقد كانوا يعلمون أنهم يخوضون معركة خاسرة، وأنهم لو قُتلوا عن بكرة أبيهم فلن يتصرفوا على محمد النبي ﷺ.

وعرب اليوم حين يعودون إلى هذا النبي ﷺ، ويعودون إلى هذا الدين، ويقايلون به سوف تظهر طبائع اليهود، وسوف يعرى اليهود في جنبهم وتخاذلهم كما تعرفوا في بني قينقاع والنضير وقريظة. إن الحديد في المعادلة هو أن عنصر التفاعل لم يقع بعد، وقايل اليهود عرباً، ولم يقايلوا مسلمين، وحين يقايلون المسلمين يظهر اليهود على حقيقتهم بلا خلاف». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣٠٤-٣٠٦].

١٠- الافتراء على الأنبياء في التوراة:

يقول الشيخ الصوياني: «هذا هو حكم الله في هؤلاء اليهود الذين كادوا ينشرون الموت والرعب في كل شبر في المدينة لو انتصر الأحزاب، حكم عاجل وحازم وحاسم، أخرج نبيه من بيته، من استراحته، وأمره على الفور بالخروج لتنفيذ هذا الحكم العادل.

قد يتعاطف أحد مع يهود بني قريظة ويقول: لماذا هذا الحزم مع اليهود، لماذا كل هذه الشدة؟ ولا أجد جواباً أعظم من أنه حكم الله وحده لا شريك له، لكن هناك إضافة يسيرة وجدتها في تورا القوم، تُحوّل اليهود أن يفعلوا ما يشاؤون بأعدائهم إذا بدرت منهم إساءة لليهود، فكيف إذا كانوا في نظرهم كفاراً كالمسلمين؟!!

هذه الإضافة تجدها في قصة «دينة بنت يعقوب».

تقول القصة إن يعقوب عليه السلام وأبناءه سكنوا مدينة «شكيم» واشتروا أراضي لهم، فخرجت «دينة» ذات يوم تتمشى فراها ابن الملك «حمور» واسمه «شكيم»، فاعتصبها، ثم طلب من أبيه أن يخطبها، فتكدر يعقوب عليه السلام لما حدث لابنته، وسكت حتى جاء أبنائه، وقال لهم: إن الملك عرض عليه الإقامة الدائمة

والمصاهرة بين العائلتين، فتظاهر الأبناء - وهم أعظم أنبياء اليهود - بالموافقة، لكن اشترطوا أن يختتن كل من أراد الزواج منهم، ولما اختتن الملك وابنه ورجال شعبه، وأثناء فترة آلام الختان هجم بنو يعقوب وغدروا بالملك رغم العهود والمواثيق، وقتلوا كل ذكر، ثم نهبوا حميرهم وبقرهم وغنمهم وجميع ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في بيوتهم. [تنظر تفاصيل القصة في (التوراة - التكوين - ٣٤)].

إذا كان هذا ما ينسبونه لأعظم أنبياء بني إسرائيل، والذين إليهم ينسب كل اليهود، إذا كان الغدر هو مبدؤهم - كما يقول كاتب التوراة - فكيف بالرعايا والحاquدين من بني قريظة؟! ما هو حجم الكارثة التي سببها اليهود في المدينة، لا أحد يعلم إلا الله، ولا شيء يردع تهوور اليهود ودسائسهم سوى السيف، وها هو السيف يطش بهم في سوق المدينة، وها هي المرأة الخائنة تقتل في سوق المدينة، ويقتل رجال بني قريظة ومحاربوها.

وهكذا أهال الإسلام التراب على جسد الخيانة القرظية المتعفن، وأراح العالم منه، وبقي من بني قريظة من اختار الحياة والإسلام والهواء النقي من كل خبث ودسياسة، فعاشوا أحراراً بالإسلام، إلا من أبي». [السيرة النبوية للصوياني ٣/ ١٢٦ - ١٢٧].

١١ - لا يحقيق المكر السيء إلا بأهله:

يقول أ/ دروزة: «ونبه إلى أن عبارة ﴿ظَهَرُوا لَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦] تلهم أنه بدا من اليهود أثناء حصار الأحزاب للمدينة أعمال مؤذية للمسلمين، أو بالأحرى أعمال تمت إلى الحرب، تضرر المسلمون منها وأثارت في نفوسهم السخط فوق ما أثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزاد من شدة الخطر على ما رأينا في غزوة الأحزاب، وليس من ريب في أن التشكيل الشديد بهم يمتد بسبب وثيق إلى هذه الظروف كلها، لا سيما أن هذا قد كان منهم دون أن يعتبروا بما كان من إجلاء بني قينقاع وبني النضير أولاً، وبسعي وجد في إيقاد نار الحرب بغية القضاء المبرم على المسلمين ثانياً، فلا غرو أن كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم؛ لأن جريمتهم أشد أثراً، وأبعد مدى.

أما عبارة ﴿وَأَرْضَائَكُمْ تَطَوُّهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، فقد قال المفسرون: إنها أرض خير، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها».

[سيرة الرسول ﷺ للدروزة ٢/ ٢٠١ - ٢٠٢].

ويقول د/ الحميدي: «وهكذا كانت نهاية غدر اليهود بالمسلمين أن لقوا نفس المصير الذي كانوا يريدونه لرسول الله ﷺ والمؤمنين، فقد تحالفوا مع الأحزاب وكان من تخطيطهم أن يهجموا على المسلمين من خلفهم من الداخل، وأن يهجم الأحزاب على المسلمين من أمامهم، ولو فعلوا ذلك لشغلوا المسلمين

عن حراسة الخندق ولربما استطاع فرسان الأحزاب أن يقتحموا الخندق، ولكن الله تعالى ملأ قلوب اليهود رعباً وفرعاً فلم يستطيعوا أن يجاوزوا حصونهم حتى هزم الله تعالى الأحزاب فعادت الدائرة على اليهود الخائنين.

ولقد وقي من يهود بني قريظة عمرو بن سعدى الذي أبى أن يدخل معهم في نقض العهد وذكرهم بما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من حلف ثم نجاه الله بصدقه ووفائه.

وهذا الخبر يثبت العهد الذي قطعه اليهود على أنفسهم من وجوب نصره المسلمين إذا دهمهم عدو من خارج المدينة، وأن لا يناصروا أعداء المسلمين، وتأتي قيمة هذا الخبر من كون هذا الاعتراف صادراً من أحد اليهود وإقرار اليهود لذلك، وإلا فإن هذا الاعتراف قد ثبت في نصوص أخرى كما تقدم لنا في المعاهدة التي تمت بين رسول الله ﷺ ويهود المدينة. [التاريخ الإسلامي للحمدي ٦/ ١٧٢-١٧٣].

ويقول أ/ وحدي: «إن اليهود الذين تخيروا البلاد العربية دار هجرتهم، كان لهم يدٌ قوية في حمل المشركين على التألب على المسلمين حرصاً على طمأنينتهم، وسلامة وجودهم، ولو كانوا أبعد نظراً لمساعدوا المسلمين على التغلب على الجاهليين؛ لأن الإسلام بما جاء به من سعة الصدر، وحماية الضعفاء، والوفاء بالعهد، كان أجدى عليهم من سلطان أهل الشرك، وقد تبين ذلك فيما عاملهم به من العدل والكرم بعد أن دالت له الدولة، فبدل أن يحفظ عليهم ما قاموا به من التأليب عليه في عهد تكوُّنه، وصى بالإحسان إليهم والبر بهم وبسائر أهل الكتب السماوية، فكان وجوده رحمة لهم.

وإننا ننبه إلى هذا هنا تبريراً لما قام به النبي ﷺ بعد هذه الواقعة من إجماع من بقي منهم عن حصونهم، دفعاً للغوائل التي تتطرق إلى جماعة المسلمين من ناحيتهم، وهذا حق مشروع لكل جماعة تود أن تنال نصيبها من الوجود، ما دامت لا تُضمّر لجماعة سخيمة نفسية، ولا تصدر فيما تعمله عن العصبية الجاهلية». [السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٢].

١٢ - لا تنزروا زرة وزر أخرى:

يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يقرر أن كل إنسان يحاسب على عمله وما اقترفت يده، فلا يُسأل عن جريمة الآخرين، ولا يُسأل الآخرون عن جريته، قال سبحانه: ﴿وَلَا تُزْرُوا زُرَّةً وَزَرَ أُخْرَى﴾

[الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧].

ومن هذه القاعدة المحكمة في هذا الدين عامل المسلمون عمرو بن سعدى القرظي معاملة طيبة، فلم يؤذوه، بل أحسنوا إليه، وبات في مسجد الرسول ﷺ؛ لأنه لم ينقض العهد ولم يغدر كما غدر قومه، وأعلن ذلك على الملأ، أنه لن يغدر بمحمد أبداً، فنجاه الله - تبارك وتعالى - بوفائه، كما أخبر رسول الله ﷺ.

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦٠-٦١].

١٣ - التأكيد على عقيدة الولاء والبراء:

يقول د/ أبو فارس: «إن المرء ليعجب من تصرف الأوس في قضية بني قريظة، إذ جأؤوا يشفعون فيهم، ويطلبون من الرسول ﷺ ومن سعد بن معاذ ؓ أن يُحسن معاملتهم وأن يعفو عنهم، ونسوا أن هؤلاء اليهود قد تأمروا على الإسلام والمسلمين وصمموا على أن يبيدوا خضراءهم، وكانوا قبل قليل في خوف شديد من بني قريظة، يترقبون هجومهم في كل لحظة، إن أعراض المسلمين وذرائعهم مهددة بمهاجمة بني قريظة، كل هذا ينسونه، ويشفعون في بني قريظة.

أقول: إن هؤلاء الأوس لم يتخلصوا من كل رواسب الجاهلية، بل بقيت بعضها، تؤثر عليهم بين الحين والآخر، حتى طهرهم الله منها في النهاية، إنهم في هذا الوقت يحنون إلى أحلاف الجاهلية، فهم يعطفون على قريظة لأنهم حلفاء الأوس قبل الإسلام، كما عطف رأس النفاق على يهود بني قينقاع لأنهم حلفاؤه في الجاهلية.

إنهم يطلبون من الرسول ﷺ أن يعفو عن بني قريظة كما عفا عن بني قينقاع، حين أكرم الخزرج بذلك.

والحق أن هناك فرقاً شاسعاً بين الجريمة التي ارتكبتها بنو قريظة والجريمة التي ارتكبتها بنو قينقاع، فبنو قينقاع تأمروا على حياة رجل من الصحابة فقتلوه، أما بنو قريظة فقد تأمروا على كيان الأمة ودولتها وشعبها، يريدون ألا تقوم للمسلمين قائمة، فهل الجريمة تتساوى؟!

إن جريمة بني قريظة أفدح بكثير من جريمة بني قينقاع، إنها تستهدف وجود الأمة، وسحقها وتدميرها، وتدمير إمكاناتها، وقتل رجالها، ونسائها وأطفالها، إنها جريمة بشعة صمموا على اقترافها، وأعدوا لها، وشرعوا في تنفيذها، ولكن الله ﷻ حال بينهم وبين تنفيذها.

وعلى هذا يجب أن يتناسب الجزاء مع الجريمة، ولا يصلح العفو مع الخيانة والغدر، ولا يمنع الغادر عن الغدر بالعفو عنه، بل يزيده غدرًا وعتوًّا.

حزم سعد ؓ وعذله في الحكم: لقد كان سعد بن معاذ ؓ عادلاً في حكمه حين حكم على بني قريظة من قتل المحاربين، وسبي النساء والذرائع، وتقسيم أموالهم على المقاتلين، أيد هذا العدل منزل العدل من السماء إلى الأرض، الله رب العالمين، وحاشا لله أن يظلم أحداً من العالمين، قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿٦١﴾ [فصلت].

لقد أدرك سعد بن معاذ ؓ خطورة الجريمة التي ارتكبتها بنو قريظة بحق الدولة الإسلامية، وكيان الأمة، ومؤسساتها، وشعبها، وحذرهم من مغبة هذه الخيانة، ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا، بل سدروا في غيهم.

إن سعد بن معاذ ؓ قد تخلّى عن كل عاطفة تستجيب لرواسب الجاهلية، فلم يعبأ برجاء الراجين، وبتوسل المتوسلين، الذين لم يُقدروا الموقف حق التقدير، وجرفتهم عاطفتهم المشوبة برواسب الجاهلية ليضغطوا على سعد ؓ ليميل عن الحق والعدل بالتخفيف في العقوبة، ولكنه لم يستجب، ونعم ما فعل. هذا هو جواب الوحي وتأنيده.

لقد قال سعد ؓ بوضوح للذين جاؤوا يذكرّونه بأن يحسن في مواليه: **لَقَدْ أُنْ لِّسَعْدُ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَّائِمٌ**. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٠٧/٢-١٠٩].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر تصوير لقوة الأحلاف الجاهلية وأثرها على النفوس، حيث لم يتخلص منها إلا أقوياء الإيمان، وما جرى في هذا الخبر من قول الأوس: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ مَوَالِيْنَا دُونَ الْحَزْرَجِ» محمول على أنه صدر من بعضهم إذ إنه يبعد أن يصدر من كبارهم المشهورين بقوة الإيمان. وكان مما يغذي وجود هذه العصبية والتمسك بالأحلاف الجاهلية وجود عدد من المنافقين في مجتمع الأنصار، حيث إن المنافقين هم من الأوس والخزرج.

وكان النبي ﷺ يعاني كثيراً من هذه النظرة المتأصلة لدى بعضهم، ولكنه كان يداريها بسياسته الحكيمة حتى استطاع أن يتلافى أخطارها المدمرة.

ومن هذا الموقف الحرج استطاع النبي ﷺ أن يخرج من هذا المأزق بتحكيم رجل من الأوس؛ لأنه إذا حكم بما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ لن يستطيع المنافقون أن يُرجفوا ولا أن يحدّثوا فتنة في مجتمع الأوس، بينما موقف النبي ﷺ محرج فيما لو حكم على يهود بني قريظة بالقتل لكونه قبل ذلك قد منّ على حلفاء الخزرج من يهود بني قينقاع، فستكون القضية مرتعاً خصباً للمنافقين ليقوموا يارجافهم.

ولقد اختار النبي ﷺ رجلاً منهم يعلم أن لديه من قوة الإيمان ورسوخ اليقين ما يكفي لإنقاذ الموقف، وذلك بتنفيذ ما كان عزم عليه في الحكم بقتل اليهود مع تلافي الحساسية التي لدى بعض الأوس فيما لو حكم فيهم النبي ﷺ.

ولقد واجه سعد بن معاذ ؓ حرجاً كبيراً من بعض قومه، وتعرض لضغوط شديدة من بعضهم حيث أتوا إليه ورافقوه في الطريق من المسجد النبوي إلى بني قريظة وحاولوا إقناعه في تخفيف الحكم لإعفائهم من القتل، فلما أكثروا عليه قال كلمته العظيمة: **«لَقَدْ أُنْ لِّسَعْدُ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَّائِمٌ»**، فطبق بذلك المبدأ الإسلامي العالي الذي لا ينظر فيه المسلم إلى أي هدف سوى إعلاء كلمة الله - تعالى - وابتغاء مرضاته.

ولما وصل إلى الميدان وحكّمه الرسول ﷺ في بني قريظة حكم بقتل رجالهم وسبى ذراريهم ونسائهم وتقسيم أموالهم، فأثنى عليه النبي ﷺ ببيان أن حكمه وافق حكم الله تعالى.

وهكذا كان هذا الموقف العظيم من أبي عمرو سعد بن معاذ ؓ حيث حكم بالحق وإن كان ذلك يغضب بعض قومه وجميع حلفائه من اليهود، وهذا دليل على تجرد قلبه لله - تعالى - حيث لم يتسرب إليه اعتبار القوى البشرية، وأصبح المتحكم في سلوكه هو اعتبار رضا الله ﷻ وحده، وإن أغضب حلفاءه والمخالفين له من قومه، وهذا علامة على كمال التوحيد.

إن كثيرًا من المسلمين يستطيعون أن يؤديوا تكاليف الإسلام التي لا تخرجهم مع الناس، ولكنهم يخضعون أحيانًا لبعض الناس في أمور لا يرضاها الله ﷻ.

أما المصطفون الأخيار فإنهم لا يفرقون بين تكاليف الدين، ولا يُلْقون بالآل لمواجهة المخالفين والتعرض لسخطهم ما داموا قد استقاموا على الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة: ﴿يَتَعَوَّنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]. [التاريخ الإسلامي للحمدي ٦/ ١٦٩-١٧١، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ١٠١-١٠٥].

١٤ - العقيدة وأثرها في حياة المسلمين:

يقول ل/ خطاب: «ظهر لنا في هذه الفترة من جهاد النبي ﷺ، أثر العقيدة في توحيد الصفوف للعمل للمصلحة العامة وحدها، وأثرها في اندفاع المسلمين كل يسابق أخاه إلى الشهادة، وأثرها في جعل المسلم يحاسب نفسه على ما اقترفه من ذنب لا يعلم به أحد غيره من الناس.

طلبت بنو قريظة من المسلمين حضور أبي لبابة بن عبد المنذر ؓ ليستشيريه، وقد كان أبو لبابة ؓ حليفًا لهم في الجاهلية وصديقًا شريفًا لا يشكُّون في إخلاصه، فبعثه الرسول ﷺ إليهم؛ فاستقبله الرجال والنساء والأطفال بالبكاء والعيول، فأثر ذلك في نفسه إنسانًا.

واستشاره يهود: أيتزلون على حكم محمد؟ فقال لهم: (نعم).

وأشار إلى حلقه كأنه ينههم إلى أن مصيرهم الذبح.

ولكنَّ أبا لبابة ؓ أدرك لغوره أنه خان النبي ﷺ بـ (إشارته) تلك؛ وأنه خضع لشعوره العاطفي لا لعقيدته الملتزم بها فيما وقع منه، فمضى هائمًا على وجهه نادمًا حتى وصل مسجد المدينة، فربط نفسه إلى سارية فيه، محلف: لا يفك نفسه حتى يتوب الله عليه.

وبقي على حاله هذا متشفعًا بالرسول ﷺ حتى تاب الله عليه.

لم يعرف أحد بـ (إشارة) أبي لبابة ؓ إلى حلقه حين استشاره يهود في الاستسلام، ولم تكن إشارته هذه نتيجة تدبر وتفكير، ومع ذلك لم يستر أبو لبابة ؓ فعلته هذه وأعلنها للناس جميعًا، وعاقب نفسه عقابًا صارمًا، مما يدل على عقيدته الراسخة وإيمانه العميق.

وحكم سعد بن معاذ ؓ على بني قريظة بأن يقتل الرجال وتسبي الذرية وتُقسم الأموال يدل على عقيدته الراسخة أيضًا.

لقد كان سعد ﷺ سيد الأوس حلفاء بني قريظة في الجاهلية، وقد توقع يهود أن تنفعهم هذه الصلة القوية عند الحكم عليهم، كما توقع الأوس أيضًا أن يتساهل سعد ﷺ مع أصدقائهم وأصدقائه الأقدمين، بل استقبله الأوس حين قدمه للحكم هاتفين: يا أبا عمرو! أحسن في مواليك.

وقد أحسنت الخرج قبل ذلك في مواليها من يهود عندما استسلموا للمسلمين، فلماذا لا يحسن الأوس إلى مواليهم مثلما أحسن الخرج؟

ولكن سعدًا ﷺ صاح بقومه وقد أكثروا عليه الرجاء: (قد أن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم). وأصدر سعد ﷺ حكمه العادل غير متأثر بالأهواء بل بعقيدته الراسخة فقط وإيمانه العظيم. هذه الأمثلة التي ظهرت لنا في هذه الفترة من حياة المسلمين ومثلها كثير، تدل بوضوح على رسوخ العقيدة في نفوسهم، مما جعلهم يستهينون بكل شيء في سبيل عقيدتهم.

[الرسول القائد ﷺ خطاب ٢٦١-٢٦٢].

١٥ - فَوْقِيَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ:

يقول الإمام السهيلي: «فِيهِ مِنَ الْفِقْهِ تَعْلِيمٌ حُسْنُ اللَّفْظِ إِذَا تَكَلَّمْتَ بِالْفَوْقِ مُخْبِرًا عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ قَالَ: «يُحْكَمُ اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»، وَلَمْ يَقُلْ: فَوْقَ عَلَى الظَّرْفِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ نَازِلٌ مِنْ فَوْقٍ، وَهُوَ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا نَحْوُ مَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، أَيْ: يَخَافُونَ عِقَابًا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَهُوَ عِقَابُ رَبِّهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: أَوَلَيْسَ بِجَائِزٍ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ؟ قُلْنَا: لَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ ذَلِكَ، فَإِنْ جَازَ فِدَلِيلٍ آخَرَ وَكَذَلِكَ قَوْلُ رَبِّنَا: «رَوَّجْنِي اللَّهُ مِنْ نَبِيِّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: أَنْ تَرْوِّجْهُ إِيَّاهَا نَزَلَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَلَا يُعَدُّ فِي الشَّرْعِ وَصْفُهُ سُبْحَانَهُ بِالْفَوْقِ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، لَا عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يَسْبِقُ لِلَّوْهُمِ مِنَ التَّحْدِيدِ، وَلَكِنْ لَا يُتَلَقَّى إِطْلَاقُ ذَلِكَ الْوَصْفِ مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَةِ وَالْحَدِيثَيْنِ؛ لِارْتِبَاطِ حَرْفِ الْجَرِّ بِالْفِعْلِ حَتَّى صَارَ وَصْفًا لَهُ لَا وَصْفًا لِلْبَارِي سُبْحَانَهُ، وَقَدْ أَمْلَيْنَا فِي حَدِيثِ الْأُمِّ الَّتِي قَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، مَسْأَلَةٌ بَدِيعَةٌ شَافِيَةٌ رَافِعَةٌ لِكُلِّ لَبْسٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٣١-٣٣٢].

ويقول الشيخ الوكيل: «حقيقة الفوقية هي: علو ذات الشيء على غيره، والجهميون يزعمون أن فوقية الله فوقية رتبة وقهر، كقولنا: الذهب فوق النفضة.

وأهل السنة وسلفنا الصالح يقولون: إن العهد والفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزل على خلاف ما يزعم الجهميون، وأنه سبحانه فوق العالم بذاته، فالخطاب بفوقيته ينصرف إلى ما استقر في الفطر والعقول والكتب السماوية.

والمجاز في الفوقية وإن احتمل في قوله: ﴿وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ فذلك لأنه قد علم أنهم جميعاً مستقرون على الأرض، فهي فوقية قهر وغلبة، ولكن هذا المجاز لا يحتمل في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ أَفْهَرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، إذ قد علم بالضرورة أنه وعباده ليسوا مستويين في مكان واحد حتى تكون فوقية قهر وغلبة.

واقراً كتاب (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة لابن القيم) ولا سيما من أول ص ٢٠٥، فقد أقام الأدلة القاطعة من القرآن والسنة والعقل على فوقية الله سبحانه بذاته من سبعة عشر وجهاً. واقراً لابن رشد الفيلسوف في إثبات جهة العلو لله سبحانه في كتابه مناهج الأدلة. وكانت زينب عليها السلام تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: (زَوْجُكُمْ أَهَالِيكُمْ، وَزَوْجِي اللَّهِ مِنْ نَبِيِّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ) رواه البخاري في الصحيح. [الروض الأنف للسهلي ٦/ ٣٣٢ هامش ١، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستبطة من غزوة بني قريظة للدلو ٧٣-٧٦].

١٦ - إثبات العرش وأنه مخلوق:

قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: «اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَاهْتَرَأَ الْعَرْشُ تَحْرُكُهُ فَرَحًا بِقُدُومِ رُوحِ سَعْدٍ ﷺ، وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَرْشِ تَمَيِّزًا حَصَلَ بِهِ هَذَا، وَلَا مَانِعَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَحِطُّ مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ ﷻ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ، وَهُوَ الْمُخْتَارُ.

وَقَالَ الْمَازَرِيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّ الْعَرْشَ تَحْرُكُ لِمَوْتِهِ. قَالَ: وَهَذَا لَا يُنْكَرُ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ، لِأَنَّ الْعَرْشَ جِسْمٌ مِنَ الْأَجْسَامِ يَقْبَلُ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ. قَالَ: لَكِنْ لَا تَحْصُلُ فَضِيلَةُ سَعْدٍ ﷺ بِذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ حَرَكَتَهُ عَلَامَةً لِلْمَلَائِكَةِ عَلَى مَوْتِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُرَادُ: اهْتَرَأَ أَهْلُ الْعَرْشِ، وَهُمْ حَمَلَتُهُ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ، وَالْمُرَادُ بِالْاهْتِرَازِ: الْاسْتِشْشَارُ وَالْقَبُولُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ: فَلَانٌ يَهْتَرُّ لِلْمَكَارِمِ، لَا يُرِيدُونَ إِضْطِرَابَ جِسْمِهِ وَحَرَكَتِهِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ اِزْتِيَاحَهُ إِلَيْهَا، وَإِقْبَالَهَ عَلَيْهَا. وَقَالَ الْحَرَبِيُّ: هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ تَعْظِيمِ شَأْنِ وَقَاتِهِ، وَالْعَرَبُ تَنْسُبُ النَّبِيَّ الْمُعْظَمَ إِلَى أَعْظَمِ الْأَشْيَاءِ، فَيَقُولُونَ: أَظْلَمْتُ لِمَوْتِ فَلَانٍ الْأَرْضَ، وَقَامَتْ لَهُ الْقِيَامَةُ.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ: الْمُرَادُ: اهْتَرَأَ سَرِيرُ الْجَنَازَةِ، وَهُوَ النَّعْشُ، وَهَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ، يَرُدُّهُ صَرِيحُ هَذِهِ الرُّوَايَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا مُسْلِمٌ: (اهْتَرَأَ لِمَوْتِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)، وَإِنَّمَا قَالَ هَؤُلَاءِ هَذَا التَّأْوِيلَ لِكُونِهِمْ لَمْ تَبْلُغْهُمْ

هَذِهِ الرُّوَايَاتُ الَّتِي فِي مُسْلِمٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[شرح النووي ٢٢/١٦ كتاب المناقب باب من فضائل سعد بن معاذ رقم ٢٤٦٦].

وروى البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اهْتَزَّ الْعَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ. وَعَنِ الْأَعْمَشِ: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ لِحَابِرٍ: فَإِنَّ الْبَرَاءَ يَقُولُ: اهْتَزَّ السَّرِيرُ، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَيَيْنِ ضِعَائِنِ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ». [البخاري في المناقب (٣٨٠٣)].

قال الحافظ في الفتح: «قوله: (فإن البراء يقول: اهتز السرير) أي: الذي حمل عليه.

قوله: (إنه كان بين هذين الحيين) أي: الأوس والخزرج.

قوله: (ضعائين) بالصاد والعين المعجمتين: جمع ضغينة وهي الحقد.

قال الخطابي: إنما قال جابر رضي الله عنه ذلك لأن سعدا رضي الله عنه كان من الأوس، والبراء رضي الله عنه خزرجي، والخزرج لا يفرُّ للأوس بفضل.

كذا قال، وهو خطأ فاحش، فإن البراء رضي الله عنه أيضاً أوسيّ؛ لأنه ابن عازب بن الحارث بن عدي بن مجذعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس، يجتمع مع سعد بن معاذ رضي الله عنه في الحارث بن الخزرج، والخزرج والد الحارث بن الخزرج، وليس هو الخزرج الذي يقابل الأوس، وإنما هي على اسمه، نعم الذي من الخزرج الذين هم مقابلو الأوس جابر رضي الله عنه؛ وإنما قال جابر رضي الله عنه ذلك إظهاراً للحق، واعتزافاً بالفضل لأهله، فكأنه تعجب من البراء رضي الله عنه كيف قال ذلك مع أنه أوسيّ، ثم قال: أنا وإن كنت خزرجياً، وكان بين الأوس والخزرج ما كان، لا يمنعني ذلك أن أقول الحق، فذكر الحديث.

والعذر للبراء رضي الله عنه أنه لم يقصد تعطية فضل سعد بن معاذ رضي الله عنه، وإنما فهم ذلك فجزم به، هذا الذي يليق أن يُظن به، وهو دالٌّ على عدم تعصبه.

ولما جزم الخطابي بما تقدّم احتاج هو ومن تبعه إلى الاعتذار عما صدر من جابر رضي الله عنه في حق البراء رضي الله عنه، وقالوا في ذلك ما محضه: إن البراء رضي الله عنه معذور؛ لأنه لم يقل ذلك على سبيل العداوة لسعد رضي الله عنه، وإنما فهم شيئاً محتملاً فحمل الحديث عليه، والعذر لجابر رضي الله عنه أنه ظن أن البراء رضي الله عنه أراد الغضب من سعد فسأغ له أن يتنصر له، والله أعلم.

وقد أنكر ابن عمر ما أنكره البراء فقال: إن العرش لا يهتز لأحد، ثم رجع عن ذلك، وجزم بأنه اهتز له عرش الرحمن، أخرج ذلك ابن حبان من طريق مجاهد عنه.

والمراد باهتزاز العرش: استبشاره وسروره بقُدوم روحه، يقال لكل من فرح بقُدوم قادم عليه: اهتز له، ومنه: اهتزت الأرض بالنبات إذا اخضرَّت وحسنت، ووقع ذلك من حديث ابن عمر عند الحاكم بلفظ: «اهتز العرش فرحاً به»، لكنه تأوله كما تأوله البراء بن عازب رضي الله عنه، فقال: اهتز العرش فرحاً ببقاء

الله سَعْدًا حَتَّى تَفْسَخَتْ أَعْوَادُهُ عَلَى عَوَاتِقِنَا، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: يَعْنِي: عَرْشُ سَعْدٍ رضي الله عنه الَّذِي حَمَلَ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ رِوَايَةِ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، وَفِي حَدِيثٍ عَطَاءٍ مَقَالٌ، لِأَنَّهُ مِنْ إِخْطَاطٍ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَيُعَارِضُ رِوَايَتَهُ أَيْضًا مَا صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا حَمَلَتْ جِنَازَةَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ قَالَ الْمُنَافِقُونَ: مَا أَخَفَّ جِنَازَتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ» قَالَ الْحَاكِمُ: الْأَحَادِيثُ الَّتِي تُصَرِّحُ بِاهْتِزَازِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ مُخْرَجَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَلَيْسَ لِمُعَارَضِهَا فِي الصَّحِيحِ ذِكْرٌ، انْتَهَى.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِاهْتِزَازِ الْعَرْشِ: اهْتِزَازُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ «إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ: مَنْ هَذَا الْمَيْتُ الَّذِي قُبِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَاسْتَبْشَرَ بِهِ أَهْلُهَا» أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ.

وَقِيلَ: هِيَ عَلَامَةٌ نَصَبَهَا اللَّهُ لِمَوْتِ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ؛ لِيُشْعِرَ مَلَائِكَتَهُ بِفَضْلِهِ.

وَقَالَ الْحَرَبِيُّ: إِذَا عَظُمُوا الْأَمْرَ نَسَبُوهُ إِلَى عَظِيمٍ، كَمَا يَقُولُونَ: قَامَتْ لِمَوْتِ فُلَانٍ الْقِيَامَةُ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَفِي هَذِهِ مَقْبَلَةٌ عَظِيمَةٌ لِسَعْدٍ رضي الله عنه، وَأَمَّا تَأْوِيلُ الْبَرَاءِ رضي الله عنه عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالْعَرْشِ السَّرِيرَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَيْهِ، فَلَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ فَضْلًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ يَشْرُكُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّ مَيْتٍ، إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ اهْتِزَازَ حَمَلَةِ السَّرِيرِ فَرَحًا بِقُدُومِهِ عَلَى رَبِّهِ فَيَتَّجُهُ.

وَوَقَعَ لِمَالِكٍ نَحْوُ مَا وَقَعَ لِابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَوَّلًا، فَذَكَرَ صَاحِبُ «الْعُنْيَةِ» فِيهَا أَنَّ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَقَالَ: أَتُنَافِئُ أَنْ تَقُولَهُ، وَمَا يَدْعُو الْمَرْءَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَذَا؟ وَمَا يَدْرِي مَا فِيهِ مِنَ الْعُرُورِ.

قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُشْدٍ فِي «شَرْحِ الْعُنْيَةِ»: إِنَّمَا نَهَى مَالِكٌ لِنَلَا يَسْبِقَ إِلَى وَهْمِ الْجَاهِلِ أَنَّ الْعَرْشَ إِذَا تَحَرَّكَ يَتَحَرَّكُ اللَّهُ بِحَرَكَتِهِ، كَمَا يَقَعُ لِلْجَالِسِ مَنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَلَيْسَ الْعَرْشُ بِمَوْضِعٍ اسْتِفْرَاجِ اللَّهِ، تَبَارَكَ اللَّهُ وَتَنَزَّاهُ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ. انْتَهَى مُلَخَّصًا.

وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ مَالِكًا مَا نَهَى عَنْهُ هَذَا، إِذْ لَوْ خَشِيَ مِنْ هَذَا لَمَّا أَشْنَدَ فِي «الْمَوْطَأِ» حَدِيثَ «يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا»؛ لِأَنَّهُ أَصْرَحَ فِي الْحَرَكَةِ مِنْ اهْتِزَازِ الْعَرْشِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَمُعْتَمِدُ سَلَفِ الْأَئِمَّةِ وَعُلَمَاءِ السُّنَّةِ مِنَ الْخَلْفِ أَنَّ اللَّهَ مُتَرَفٌّ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالتَّحَوُّلِ وَالْحُلُولِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَيَحْتَمِلُ الْفَرْقُ بَأَنَّ حَدِيثَ سَعْدٍ رضي الله عنه مَا ثَبَتَ عِنْدَهُ فَأَمَرَ بِالْكَفِّ عَنِ التَّحَدُّثِ بِهِ بِخِلَافِ حَدِيثِ التَّزُولِ، فَإِنَّهُ ثَابِتٌ فَرَوَاهُ وَوَكَّلَ أَمْرَهُ إِلَى فَهْمِ أُولِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي الْقُرْآنِ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَقَدْ جَاءَ حَدِيثُ اهْتِزَازِ الْعَرْشِ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه عَنْ عَشْرَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَوْ أَكْثَرٍ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، فَلَا مَعْنَى لِإِنْكَارِهِ. [فتح الباري لابن حجر ١٥٥/٧-١٥٦].

وقال السهيلي: «وَذَكَرَ اهْتِزَازَ الْعَرْشِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي مَعْنَاهُ وَظَنُوا أَنَّهُ مُشْكِلٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِهْتِزَازُ هَاهُنَا بِمَعْنَى الْإِسْتِشَارِ بِقُدُومِ رُوحِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُرِيدُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

لَا أَنْ يَهْتَزَّ الْعَرْشُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَا بُعْدَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ وَتَحَوَّرَ عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالْهَرَّةُ وَلَا يُعَدَّلُ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ، وَحَدِيثُ اهْتِزَّازِ الْعَرْشِ لِمَوْتِ سَعْدٍ صَحِيحٌ.

قَالَ أَبُو عَمَرَ: هُوَ ثَابِتٌ مِنْ طَرِيقٍ مُتَوَاتِرَةٍ، وَمَا رَوَى مِنْ قَوْلِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه فِي مَعْنَاهُ: أَنَّهُ سَرِيرٌ سَعْدٍ رضي الله عنه اهْتَزَّ، لَمْ يَلْتَقِ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ، وَقَالُوا: كَانَتْ بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَيِّينِ مِنَ الْأَنْصَارِ ضَعَائِفٌ.

وَفِي لَفْظِ الْحَدِيثِ: «اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» رَوَاهُ أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ وَأَبِي سَمِيَّانَ، كِلَاهُمَا عَنْ جَابِرٍ، وَرَوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ جَمَاعَةٌ غَيْرُ جَابِرٍ، مِنْهُمْ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَرُمَيْثَةُ بْنُثَ عَمْرٍو، ذَكَرَ ذَلِكَ التِّرْمِذِيُّ.

وَالْعَجَبُ لِمَا رَوَى عَنْ مَالِكٍ رضي الله عنه مِنْ إِنْكَارِهِ لِلْحَدِيثِ، وَكَرَاهِيَتِهِ لِلتَّحَدُّثِ بِهِ مَعَ صِحَّةِ ثَبَلِهِ وَكَثْرَةِ الرَّوَاةِ لَهُ، وَلَعَلَّ هَذِهِ الرَّوَاةَ لَمْ تَصِحَّ عَنْ مَالِكٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ». [الروض الأنف للسهيلى ٦/ ٣٤٠-٣٤١].

وقال ابن سيد الناس: «قلت: هذا يقتضى أن يكون إنكار مالك محمولاً عنده على أمر عنده يرجع إلى الإسناد، وليس كذلك، بل قد اختلف العلماء في هذا الخبر: فممنهم من يحمله على ظاهره، وممنهم من يمنح فيه إلى التأويل.

وما كانت هذه سبيله من الأخبار المشككة فمن الناس من يكره روايته إذا لم يتعلق به حكم شرعي، ففعل الكراهة المروية عن مالك من هذا الوجه. والله أعلم». [عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ١١٥-١١٦].

ويقول الشيخ الوكيل: «وأقول: دين السلف: إذا ثبت النص ثبوتاً لا اختلاف عليه، فإنه لا يجوز تأويله تأويلاً يفسد معناه، أو يجرده من حقيقته، وإنما يجب حمله كما ورد دون تشبيه لما نُسب إلى الله من صفة أو اسم أو فعل بما يُنسب إلى الخلق من ذلك، فلهذا مثلاً يدان حقيقتان ليستا هما النعمة أو القدرة أو غير ذلك مما يهرف به المعطلة، لكنهما ليستا كيد الخلق، وإذا كانت أيدي البشر لا تتشابه، فكيف نُشَبِّه يد الخالق بيد الخلق، فنقع في وصف الله بأنه عدم حين نُجَرِّد صفاته من معانيها، أو بأنه صنم حين ننسب إليه عين ما ننسبه إلى الخلق، تعالى الله عن هذا علواً كبيراً». [الروض الأنف للسهيلى ٦/ ٣٢٢ هامش ٢، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ١٦٨-١٧٦].

١٧ - إثبات الكرامات في هذا الدين:

يقول د/ أبو فارس: «وما حدث لسعد رضي الله عنه من كرامات في حياته من استجابة الله دعاءه، وبعد موته، من حَمَلِ الملائكة في جنازته، وسَيَّرَهَا فِيهَا، واهْتِزَّازِ الْعَرْشِ لِمَوْتِهِ أدلة شرعية صحيحة على وجود الكرامات واعتبارها في هذا الدين لأوليائ الله الصالحين.

هذا ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُنكر وجود الكرامات في هذا الدين، ما دامت قد قامت الأدلة الصحيحة من السنة النبوية على الإخبار بها وبحدوثها.

ولكن ينبغي أن يفرق بين هذا وبين إنكار إنسان على شخص وعدم تصديقه بكرامة زعمها لنفسه، خاصة إذا كان ليس ثقة في دينه أو عدلاً في نقله أو ليس موثقاً في عقله، وخاصة إذا كان هذا العمل الذي يزعم أنه كرامة جاء بعد عصور خير القرون، فتجد كثيراً من الناس يتوسعون في هذا، ويتوهمون هذا، ويتخيلون هذا، وربما ذكروا وزعموا حدوث كرامات لهم، وهي تتنافى مع أصول العقيدة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٣٣/٢].

١٨ - إثبات عذاب القبر :

يقول د/ أبو فارس: «ومن الأمور التي تحدث للميت في الحياة البرزخية - أي الفترة الواقعة بين موته وبين بعثه يوم القيامة - ضغطة القبر - وهي مؤلمة - بهذا جاءت الأخبار الصحيحة، فقد مر خبر سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكيف ضمه القبر ضمة ثم فرج عنه، وهذا الخبر ذكره ابن كثير، وقال: إسناده جيد. وهذه الضغطة أو الضمة أخبر النبي ﷺ أنه لا ينجو منها أحد من المسلمين الصالحين، ولو كان أحد ينجو منها لنجا سعد بن معاذ رضي الله عنه». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٣٣/٢].

وهذه الضغطة غير فتنة القبر التي يُعفى منها الشهيد، فتأمل». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١٣٣/٢ - ١٣٤، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للذليل ١٧٨-١٨٨].

١٩ - الأخذ بالأسباب :

يقول د/ أبو فارس: «تعلم من هذه الغزوة وغيرها الأخذ بالأسباب ثم التوكل على الله تبارك وتعالى، فحينما قرر رسول الله ﷺ أن يسير إلى حرب بني قريظة لبس درعه ومغفره والحقه وتقلد سيفه، وتناول رمحه بيده، قد دُجِّج بالسلح كما ترى، وهو نبي قد تكفل الله بحبائته، وعصمته من الناس حتى يبلغ دين الله للناس».

فالدِّين الإسلامي يُعَلِّم أصحابه كيف يأخذون بالأسباب، ويبدلون جهدهم ويفرغون كل ما في وسعهم من طاقة، ثم يتوكلون بعد ذلك على الله، يفوضون أمرهم إليه، فهو نعم المولى ونعم النصير». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٥٩/٢ - ٦٠].

٢٠ - لا إكراه في الدين :

الإسلام لا يُكره أحدًا على اعتناقه، فقد دعا رسول الله ﷺ ریحانة رضي الله عنها إلى الإسلام فأبت أن تُسلم، وبقيت مدة لم تعتق الإسلام، فلم يكرهها رسول الله ﷺ على ذلك، بل تركها وشأنها. والإسلام يضمن لكل متدين دينه وعقيدته ولا يُضَيِّق عليه، وهذا ما يُسمى في العصر الحديث بحرية العقيدة والتدين، وهكذا عوملت ریحانة.

وكان سرور الرسول ﷺ بإسلام ریحانة رضي الله عنها؛ لأنها أنقذت من النار».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١١٧/٢ - ١١٨].

٢١ - العرض القرآني للغزوة:

يقول / شقرة: «وجاء ذكر غزوة بني قريظة في سورة الأحزاب في آيتين فقط: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [٢٦] وَأَوْثَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَذَرُهُمْ وَأَمْرَهُمْ وَارْضَا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَاتَبَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب].

وتطوي هاتان الآيتان أحداث الغزوة العديدة التي رسمتها أقدام الصحابة وحوافر خيلهم على طول الطريق من المدينة إلى منازل بني قريظة، وحول أسوار حصونهم المنيعة المنيفة، والكلمات التي رددتها ألسنتهم، والأصوات التي تردد صداها في أرجاء الأرض المنبسطة حول تلك الحصون، والتدبير العقلي المسدد بالوحي السماوي، والدعوات التي جارت بها قلوب الصحابة المتدفقة حباً لله وللرسول، المفعمة بالشوق الكبير إلى الجهاد في سبيل الله، وصورة سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس وهو ينهض من قوته داخل المسجد، فيمتطي حملاً ليلتحق برسول الله ﷺ، فيقول كلمة الفصل في يهود بني قريظة، التي توافق حكم الله من فوق سبع سموات: «إِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسَبَّى الذَّرِيَّةُ وَالنِّسَاءُ، وَتُقَسَّمْ أَمْوَالُهُمْ». كل هذا وغيره مما أوجز ابن كثير رحمته الله مما هو مبسوط مطول في كتب السيرة أحكمته الآيتان في تسع وعشرين كلمة، فأبي إعجاز هذا الذي رسم بتلك الكلمات التسع والعشرين صورة معركة بكاملها، من تدبير، وزحف، وحصار، وإنزال من الحصون، وأسر، وقتل، ومصادرة للأموال، واستيلاء على الأرض. وتُسرع الآيتان في ذكر النتيجة التي تولى الله سبحانه بنفسه تحقيقها كما تولى تحقيق نتيجة الغزوة التي قبلها - غزوة الأحزاب - ويطوي ما قبلها كله؛ لأن العبرة بالغايات والنتائج، والغزوات كلها غايتها واحدة، وهي التمهيد لإعلاء كلمة الله في الأرض.

ولأهمية النتيجة - التي حرص عليها القرآن لينهي نبأها إلى أسماح الأجيال القادمة، فتفرح بها نال أسلافها، وتطمع في مثل ما وصلوا إليه - يؤخر شيئاً مهماً جداً له أثر كبير في إحراز مثل هذه النتيجة وهو: الخوف الذي ملأ قلوب أولئك اليهود: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، والتعبير القرآني بكلمة: ﴿وَقَذَفَ﴾ تعبير تصويري رائع، فقد جعل الرعب شيئاً يُقَذَف، صوبه إلى القلب، والقلب إذا أصيب أودى إلى الموت، وقد كان ذلك، فقد استسلموا، وأنفذ فيهم الرسول ﷺ حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، ومن بقي أجلي عن أرضه، فأفقرت من أهلها، فلم يبق أثر لشيء إلا ما بقي من أثر الموت.

ولم يذكر القرآن بني قريظة صراحة، وإنما قال: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول ﷺ، ولعل التكنية عنهم بقوله: ﴿ظَاهَرُوهُمْ﴾ إشعاراً بالعلاقة الوثيقة بين الغزوتين: غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، وإعلاماً بأن الثانية كانت نتيجة من نتائج الأولى، وأثراً من آثارها.

والجزء من جنس العمل، فكما أن اليهود مالؤوا المشركين، وتظاهروا على إخافة المسلمين في غزوة الأحزاب، فإن الله سبحانه رد هذه الإخافة إلى بني قريظة، وملاً قلوبهم رعباً، فلم تغلح حصونهم المنيعة في رد الرعب عنهم، وأهبطهم الخوف منها، فأسيما ذلك الأسر، وأذيقوا ألم الثقيل، ولبث الموت فيها ملياً يتربص بمن تحدّثه نفسه العودة إليها، وليس شيء ألم للنفس من فراق الإنسان أرضه التي وُلد عليها، وترعرع فوقها، فأخذت منهم أرضهم، وصارت تحت يد الإسلام إلى قيام الساعة إن شاء الله، وأودعت قلوب من بقي منهم حياءً حسرة، وتحرك فيها حشرة الموت في كل لحظة من لحظات حياتهم التي عاشوها، ولم تفارقهم إلا حين قبضتهم يد الموت إليها.

لكن ماذا يقول المسلمون اليوم وهم يسمعون كبار يهود فلسطين يرتلون في حزن وشقٍّ أنات أجدادهم شوقاً إلى أرضهم الأولى على أفواه البنادق والرشاشات والمدافع، وفي هدير أصوات الدبابات والجرافات والطائرات؟!

وما من شك أن حصون بني قريظة هذه لو بقيت، وبقي فيها المكر اليهودي يرسل شواظه الخفي على المسلمين في المدينة، لكان أمرٌ لا يدرك إلا بعد وقوعه، ولا استطاع المشركون أن يُعيدوا الكرة على المدينة بالتواطؤ مع يهود بني قريظة، فتقع في قبضتهم، ويؤاد الإسلام في مهده قبل أن يستوي على سوقه، ولكن الله سلّم، وسقط في أيدي اليهود كما سقط في أيدي الأحزاب من قبل، ورأى المؤمنون بأم أعينهم المعجزة السماوية تتجلى في بهاء واستعلاء، يظهرها الله سبحانه لأولياؤه ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وتطمئن قلوبهم بنصر الله الذي أحرزوه بفضل الله وحده، بعد أن علم منهم الإعداد للقتال، والعزم على بلوغ الغاية وتحقيق النتيجة مهما كلفهم ذلك من ثمن، فأناهم إياه كرامة لهم بجهد قليل.

ولم تكن غزوة بني قريظة بتدبير من الرسول ﷺ، ولا بمشورة أحد من الصحابة، بل كانت بأمر من الوحي، أعقبت غزوة الأحزاب، بعد جهد نفسي وبدني ضخم بذله الرسول ﷺ وأصحابه في حفر الخنادق، والسهر المتواصل، والحذر البالغ، والترقب والفزع الشديدين، فكان أمر الوحي بها إيذاناً من الله بالنتيجة التي انتهت إليها؛ لذلك خف الصحابة ﷺ إليها في غير تردد، ولم يكن الجهد النفسي والبدني الذي بذلوه في الخندق ليُفْعِدَهُمْ، بل كان حافزاً لهم على الإسراع في إنجاز ما طلبه الرسول ﷺ منهم، أوفوا به على شرف النصر، وأخافوا به عرب الجزيرة الذين لم يكن عندهم من وسائل الدفاع والقتال ما عند أولئك اليهود، وأوقعوا في قلوبهم الرعب، وأضعفوا شوكة المشركين، ولا شك أن نتيجتي الغزوتين مجتمعين (الأحزاب وبني قريظة) - على قرب العهد بينهما - أمضيا أمراً على مشركي الجزيرة لم يكن في حسابهم ألبتة، كان له - في ظني - دور في تخفيف الوطأة عن المسلمين في المدينة، وتوهين قوتهم ولفت

أنظارهم إلى التفكير في أمر القوة التي أصبح لها ذلك الشأن الخطير فوق أرض الجزيرة، بحيث صارت تتابع الحرب في بأس لم يكن لهم به عهد - ولم يكن ليخطر في بالهم أن يكون - لأنهم كانوا يحسبون الأشياء حساباً رقمياً مادياً محضاً، وينشؤونها إنشاءً قياسياً يخضع للكم وحده.

ولست هنا بصدد المقارنة والمقايسة بين الماضي وبين الحاضر، لأسوق النبأ للناس من بعدي ما كان من أمر المسلمين مع اليهود في فلسطين، والخوف منهم الذي أحاط بالمسلمين في كل أرض، والإمعان في الذل على أيدي بقية بني قريظة والنضير وقينقاع، والمؤامرات الدنيئة التي كان يتسابق إليها الكبراء إرضاء لسادتهم سدنة البيوت البيضاء والحمراء والسوداء، فإن التاريخ قد أوعب ذلك وغيره ليظهر عليه الأجيال في غير مَنْ ولا أذى، وفي غير تبرير وكذب ومين، وسيعلم أولئك أي منقلب ينقلبون: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يَوْفُونَ﴾ (٤٣) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَفُهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ [المعارج]، فلنترك نبأهم للتاريخ، فليعلمن نبأهم بعد حين. [السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٤٠١-٤٠٢].